رحلات السندباد السبع

بقلم عبد الرحمن فهمي

وما جرى له فيها من الحوادث العجيبة والمصادفات الغريبة

كلوا يا اصحاب كلوا .. شمروا الاكمام عن السواعد ، وارخوا الاحزمة عن البطون ، ثم كلوا واشربوا حتى تمتلئوا ، فالاكل والشرب متعة اعرفها واحبها ، وطعامي وفير ، وخيري كثير ، فكلوا اذن واشربوا ولا تتأثموا . وان شئتم ايضا دعوت لكم راقصاتي يمتعنكم ،فعندي منهن الف ، وعندي ايضا من الجواري الف ، الف مختلفات متباينات .. فيهن البيضاوات والسمراوات والصفراوات ، جمعتهن في رحلاتي السبع . ابت من اسفاري وحصادي الف راقصة والف جارية وألف صندوق مفعم ذهبا وفضة ولآليء ، اصغرها بيضة يمامة ، واكبرها بيضة نعامة . كل هذا لكم .. فكلوا واشربوا والتذوا اذن دون تحرج او تأثم ، فكلنا يحب ان يأكل ويشرب ويلتذ ، كلنا .. انتم .. وانا .. وحتى هي .. تلك الملكة الكاذبة الملفقة شهرزاد ، هي ايضا تحب ان تأكل وتشرب وتلتذ . وتحب قبل هذا كله ـ وبعده ايضا ـ ان تكذب وتزور وتخاتل . وهذا ما لم ادعكم اليه ، وما اكره لكم ـ ولنفسي ـ ان نفعله . يكفينا ـ نحن ابناء آدم ـ ان نأكل ونشرب ونلتذ ، ولنترك الكذب والختل لها ، فليس عندنا ـ مثلها ـ شهريار يلهث فرارا من الحقيقة ، ومن ثم فلسنا في حاجة الى تلفيق حكايات وتنميق اكاذيب نلقيها في اذنيه كل ليلة لتخدعه بها عن نفسه وعنا . ثم اننا لا نريد ـ مثلها ـ ان نكون اسطورة تعيش الف ليلة وليلة . يكفينا ان نعيش هذه الليلة ، واذا متنا غدا فسوف نعود الى التراب . ونحن تراب كما تعرفون يا اصحاب ، تراب ان رفت فوقه الريح تناثر وتبدد ، وان مسه ندى الفجر اخضر وانبت . نحن لسنا اسطورة خارقة نسجها الوهم ، نحن حقيقة تلهث على الدرب ، تعرق في لفح الظهيرة ، وتسعل ليلا خلف جدار رطب . نحن نحن .. ما كنا ، وما استطعنا ان نكون ، ولا نزال نلهث على الدرب في طريقنا الى ما نريد ان نكون . ولهذا نأبى ان تحملنا هذه الشهرزاد على ان نسلك ما تختار هي لنا من دروب ، كما نأبى ان نقبع خلف الجدار الرطب لنسعل في الظلام ، ثم نفجع مع الفجر بهذه المرأة تقدم لنا انفسنا في كلمات . نحن الكلمات يا اصحاب، ولهذا نأبى ان تصنعنا الكلمات ، ولهذا ايضا يا اصحاب لا اريد لنفسي ان تموت ـ فعمري سبعمائة عام كما تعرفون ـ وتخلد تلك الشهرزاد لتزور حياتي ربما تقص على شهريارها عني . اريد ان ارد هذا الزيف واقص عليكم حكايتي بنفسي . انا التراب ، سأحكي لكم لهاثي على الدرب ، سأنثر امامكم عرقي قطرة فقطرة، سأسمعكم سعالي الاجش خلف الجدار الرطب . ولن يخدش هذا آذانكم ، فكلكم مثلي تلهثون على درب قصي .. بعضكم يلهث خلف لؤلؤة وضيئة، وبعضكم يلهث خلف درهم صدىء ، منكم من يلهث نحو نهر من عسل ولبن ، ومنكم من يلهث نحو بركة آسنة . ولكننا ـ كلنا ـ نلهث ، وكلنا نعرق ، وكلنا نسعل ، وكلنا ـ في اقصى الدرب ـ نموت والى التراب نعود.

**

لا تسألوني يا اصحاب كيف وقعت حكاياتي في يد هذه الشهرزاد فلفقتها وزيفتها ، لا تسألوني ، فسوف احكي لكم كل شيء كما وقع .

في امسية مرحة ـ وكل امسياتي مرحة كما تعرفون يا اصحاب ـ كنت اجلس في القصر الثالث من قصوري السبعة .. في يميني فيل مشوي ، وفي يساري زق من خمر بابل ، وامامي الف راقصة يمتعنني ، وحولي الف جارية يخدمنني ، اذ نبئت بأن جارية محجبة بالباب تطلب المثول بين يدي .. جميل .. اقبلي سيدتي اقبلي ، فشواء الفيل يملأني فتاء وقوة ، وخمر بابل تلهبني حنينا ونشوة . اقبلي سيدتي ، ولكن اياك ان تفوص ساقاك في بساطي ذاك الممدود ، انه بساط مسحور اهدانيه الملك زهمان صاحب جزائر ميسان ، من جاءني يسعى بشر غاصت ساقاه فيه حتى الركبتين فلا يريم ، ومن جاءني يسعى بخير حمله البساط نحوي وئيدا كأنما يسري على جناحي مطوقة .

« اهذا بساطك المسحور يا سندباد ؟ »

« اجل يا سيدتي .. هو بساطي المسحور المشهور . »

« فلتطوه اذن من طريقي كي اصل اليك » .

« أتخشينه سيدتي ؟ فأنت اذن تسعين الى بشر ! »

« انا .. ؟ !! »

وضحكت يا اصحاب ، فكأنما حوريات بحر المرجان يضحكن بين الخلجان ، ورفعت نقابها ، فكأنما لؤلؤة الملك تبهان أسفرت لتضيء الالوان (سأحكي لكم يا اصحاب فيما بعد عن حوريات بحر المرجان وعن لؤلؤة الملك نبهان) وتقدمت نحو البساط كأنها غزال يخطر ، وبسطت نحوه يدين رفيقتين دقيقتين ، ثم اخذت تحركهما كراقصة من الهند تبتهل في معبد بوذا الرب ، فاذا بالبساط ينطوي يا اصحاب ، كل حركة من يديها كانت تطويه طية ، وطية وراء الفيت البساط تحت قدمي كومة . فطارت خمر بابل من رأسي كأنما لم اشرب زقا ، ودب الخور في قلبي كأنما لم آكلا فيلا. والحق اقول لكم يا اصحاب انني ارتعدت .. احسست خوفا لم احسه قط خلال رحلاتي السبع .

وتوقفت الجارية عن تحريك يديها الرقيقتين الدقيقتين ، ثم عادت من جديد :

« ارأيت يا سندباد الى بساطك المسحور المشهور ؟ »

« سيدتي .. ! »

رجاء

من السندباد الى جميع (المسقفون) في الارض

حكاياتي بسيطه ، كتبتها للابرياء ممن هم دون السادسة عشرة ، وللحكماء ممن هم فوق الاربعين . فبحق شيبي ، وبحق قرائي اولئك ، ارجوكم ، واتوسل اليكم ، ان تعفوا حكاياتي من احكامكم وتأويلكم وتحليلكم وجربوا ، ولو مرة واحدة ، ان تقرأوا في براءة او في حكمة .

سندباد

« نادني شهرزاد » .

« شهـرزاد .. ؟ !! »

وانتم تعرفون يا اصحاب ـ مثلما اعرف ـ معنى شهرزاد . كانت اخبارها مع شهريار قد وصلت الي ، وسمعت كيف صرفته عن قتلهـا صرفا من غير ان تقول له : لا تقتلني . وكيف صلوته في بنصرها عبـدا دون ان تشهر في وجهه سيفا . انها حية رقطاء يا اصحاب وان كانـت لا تلدغ ، وانما تفريك بجلدها الاملس فتلمسها ، ثم تستطيب لمسهـا فلا تردها وهي تمس رقبتك ، ثم لا تردها وهي تلتف بها ناعمة كالحرير، ثم تضغطها ضغطة تلتذها ، واخرى تضيق بها انفاسك ولكنك تلتذها ، وثالثة تخنقك وانت لا تزال تلتذها. ماذا اقول يا اصحاب؟ انها شهرزاد !!

« مولاتي ، لم لم تجعلي من اسمك مفتاحا لقلبي ؟ »

« حسبت وجهي يفتحه . »

« وهو قد فتحه يا مولاتي . ولكن التجربة علمتني ان الوجـه الجميل لا يكون دائما قناعا لقلب جميل . »

« حتى وجهي يا سندباد ؟ »

« ماذا اقول يا مولاتي ، لعنة الله عل ىالتجربة والحكمة . »

« احسنت الحديث يا سندباد . »

وضحكت مرة اخرى يا اصحاب ، فكأنما حوريات بحـر المرجان يضحكن بين الخلجان ، ثم خطرت نحوي كعطر زهرة السيزان في بساتين ساحر جلستان . فقمت عن الدست واجلستها مكاني ، ثم قدمت اليهـا بيدي زقا من خمر بابل .

« انا اعصرها لشهريار . »

« ليكن اذن فيلا مشويا ؟ »

« انا اطعمه شهريار . »

« لتامر مولاتي اذن . »

« اصرف جواريك وراقصاتك . »

فاشرت يا اصحاب ثم انصرفن ، فانصرفن .

« أدن مني سندباد . »

« حسنك مولاتي على البعد يعيشني ، وعطرك يسكرني ولم ادن ، فكيف بي اذا جلست بجوارك ؟ »

« ادن سندباد ولا تخف ، فأنا امرأة ضعيفة . »

« مولاتـي .. ! »

« اجل يا سندباد .. انا امرأة ضعيفة وانت سندباد العظيم . »

وفرت من عينها لؤلؤة ، اعني دمعة يـا اصحاب ، فاحسست بلهيبها يلفح المكان كأنما يعبر بي الرخ فوق بركان ،وندت عن صدرهـا زفرة ، فتصدع من حرها السقف والجدران . فكيف بقلبي يا اصحاب، وهو كما تعرفون اشف من بيضة الهسهاس ، واخف من ريشة النواس؟ (ذكروني يا اصحاب بأن احكي لكم فيما بعد عن الطائر الهسهاس والبلبل النواس ، فهما من المخلوقات العجيبة التي رأيتها في رحلتي الرابعة.)

« انا امرأة ضعيفة يا سندباد .. حياتي معلقة بالكلمة يرصفهـا لساني كل ليلة ، وعنقي لا يرد عنه سيف شهريار الا رصيدي مـن الكلمات . فتأمل امرأة يرتبط مصيرها بالكلمة ! »

« الكلمة حق يا مولاتي ، والكلمة قوة ، والكون مخلوق بالكلمة .»

« فاذا نفدت الكلمة كان العدم وكان الفناء . »

« حاشا للكلمة ان تنفد يا مولاتي . »

« ما لم تمدها بما عندك من كلمات . »

« انا يـا مولاتي ؟ »

« اجل يا سندباد ، ولهذا جئتك الليلة ساعية .. انقذني من الفناء يا سندباد ، جنبني العدم ، هبني الخلود .. ! »

« انا انسان يا مولاتي لا املك الخلود .. ! »

« بل تملك حكايات رحلاتك السبع . »

فأطرقت يا اصحاب ساعة ،ادرت فيها الفكر ، وقلبت خلالها النظر .. كيف تهب الخلود حكايات انسان يلهث على الدرب ، ويعرق في لفح الظهيرة ، ويسعل ليلا خلف جدار رطب ..؟

« سندباد .. الفناء كئيب ، والعدم برودة .. ! »

« حكاياتي يا مولاتي عرق ودموع ، وقطرات من دم اقدام ادقهـا اسنة الصخور . »

« هي الكلمة يا سندباد ، والكلمة قوة ، والكلمة حق ، والكـون مخلوق بالكلمـة .. ! »

« حكاياتي كلمة الانسان .! »

« في البدء كان الكلمة،والكلمة كان عند الله،وكان الكلمة الله.!»

وتحيرت يا اصحاب ، فانا لا احب ـ ولا اعـرف ـ ان اتفلسف . حياتي حركة لا خاطرة ، وفعل لا فكرة ، انققت عمري جواب آفـاق ، ارحل مع الفجر في اول سفينة ، تشيلني الامواج وتنفضني فأعرف ، ويضرب الحوت قاع سفينتي ليخرقها فاعرف ، واصارع الامواج لانتزع من قيعانها حياتي فأعرف .. معرفتي يا اصحاب غرستها بين مخالـب الرخ ، ونميتها تحت انياب الغول ، وانضجتها فوق نيران المجوس ، وها انذا احصد الان معرفتي .. سبعة من القصور ، والفا من الجواري ، والفا مثلها من الراقصات ثم الفا من الصناديق المفعمة ذهبا وفضـة ولآلىء ، اصغرها بيضة يمامة ، واكبرها بيضة نعامة . فكيف تريدنـي شهرزاد على ان اجلس في عبق عطرها ، وتحت سنا بهائها ، لافكـر واتفلسف ؟

وانتهيت يا اصحاب الى انني من جنس غير جنسها .. وعالمـي غير عالمها ، وغايتي لا تلتقي بغايتها ، فان رأت في كلماتي خلودها فهذا شأنها . حكاياتي منقوشة بمداد من رماد فوق صفحات كتاب ، ولكنهـا حية تغتذي بدمي في رأسي . فلتأخذ الكتاب وترحل ، ولتدع لـي رأسي كما هي .

وناولتها الكتاب يا اصحاب .

« لن تندم يا سندباد على ما وهبتني من كلمات . »

« مولاتي ، انت طلبت كلمة الانسان ، وما كان للانسان ان يضـن بالكلمة . ها هي ذي كلماتي بين يديك يا مولاتي فعسى ان تهبك مـا تسعين اليه من خلود . »

« خلود ستتشاركني اياه يا سندباد . »

ولم اتوقف عند كلماتها يا اصحاب ، لم يعنني ساعتها ما وعدتني به من خلود بقدر ما عناني ان ترحل عن قصري وتخلي بيني وبين ما كنت فيه من متعة .. في يميني فيل مشوي ، وفي يساري زق من خمـر بابل ، وامامي الف راقصة يمتعنني ، وحولي الف جارية يخدمنني .

خلود .. ؟! .. هه ..!

ورحلت عني يا اصحاب ، وخلفتني لما كنت فيه ، ولكنها تركـت لي عبقا من عطرها يتأرج في ابهاء القصر لا يتبدد ، وكلما دغدغ انفي اعاد الى سمعي رنين صوتها :

« خلود ستتشاركني اياه يا سندباد . »

وفي نهاية اليوم الاول كنت اسخر من قولها ذاك ، ولكنني فـي نهاية الاسبوع الاول بدأت اردد في نفسي الا بأس بأن اخلد معها فـي مسمع الدنيا ، والخلود فكرة لطيفة على كل حال . وفي نهاية الشهـر الاول اخذت تخالجني ـ احيانا ـ رغبة في ان اسمع اسمي تـرددد السنة الناس . اما في نهاية السنة الاولى فقد اخذت اسأل كل منالقاه:

« الم تسمعوا ما روت شهرزاد عني لشهريار ؟ »

« بلى يا سندباد ، سمعنا وطربنا . »

ارأيتم كيف ركبت الرخ وخرجت من وادي الماس ؟ »

« رأينا يا سندباد ، وانك لعجيب ، وانك لمحظوظ ، وان كـان حاسب كريم الدين اعجب وافضل منك حظا . »

« ومن حاسب كريم الدين ؟ »

« ذاك الذي شرب مرق ملكة الحياة فرأى السموات السبع ومـا فيهن حتى سدرة المنتهي . »

« حتى سدرة المنتهي ؟!! »

« ونظر الى الارض فعرف ما فيها من معادن ونبات واشجار والهـم علـم الطـب . »

« في نظرة واحدة ؟ !! »

« وعلم السيمياء كذلك ؟! »

« لم يبق الا ان تقولوا علم الكيمياء ايضا ..! »

« كذلك قالت شهـــرزاد . »

« وانـــا ؟! »

« مغامر آفاق حظه حسن . »

ولكم ان تتصوروا فزعي يا اصحاب من هذا الخلود الذي سافتني اليه شهرزاد ، لقد خلدتني حقا ، ولكن كمغامر آفاق حسن الحظ . انا السندباد مغامر افاق حسن الحظ ؟!!

وشعرت يا اصحاب بأن كل قطرة عرق انتزعها مني لفح الظهيرة ، وكل سعلة خشنة هدهدها الجدار الرطب ، وكل خطوة دامية شققت قدمي فوق الصخور ، كل أولئك له على حق .. ينبغي يا اصحاب ان ارد الامر الى نصابه ، وأعيد ثقة الناس بي ، وثقتي انا بنفسي . ولهذا سأحكي لكم رحلاتي السبع كما حدثت لا كما زيفتها عليكـــم شهرزاد ، فاسمعوني يا اصحاب ، وانقلوا عني ما اقول الى اولادكم ، واوصوهـم بأن ينقلوها بدورهم الى اولادهم من بعدهم حتى لا يضلوا عن الدرب ، ولا ينفقوا حياتهم يلهثون خلف سراب .

يا اصحاب .. اليكم حكاية رحلاتي السبع .

الرحلة الأولـــى

قال لي شيخ التجار :

« يا سندباد ، لو لم يكن أبوك رحمه الله صاحبا قديما الـــي ، لارسلت بك الى قاضي القضاة . »

فصاح رهط التجار الذين كانوا يمسكون بتلابيبي :

« الى قاضي القضاة . »

فقال شيخ التجار ، الرجل الحكيم ذو القلب الطيب :

« امهلوه يوما آخر . ! »

« بل الى قاضي القضاة . »

« انـــا شيخكـم .. ! »

« وهو مدين لنا بمائة الف دينار .! »

« امهلوه يوما واحدا من اجل صداقتي لابيه . »

« اتضمنـــه لنـــا ؟ »

فأطرق شيخ التجار ، الرجل الحصين ذو الفكر الثاقب مفكرا .

✱✱

كان يجلس في قصره ـ وهو فخم الى حد ما ولكنه كوخ حقير اذا ما قورن بقصري الذي ورثته عن أبي ـ علـــى اريكة مطعمة بالصدف والعاج ، وذؤابة تتدلى من عمامته الى امام فتخفي عينيه ومـــا يدور فيهما من افكار ، واصابع يده اليسرى تتخلل شعيرات لحيته الكثـــة المخضبة بالحناء ، وبين اصابع يده اليمنى ثبت قدمه اليه التجار لـــم يترك كبيرة ولا صغيرة من ديوني الا احصاها . وكنت واقفا امامه فـــي ضيق ، واقصى امنياتي أن ينتهي من فض هذا الخلاف حتى اعود الـــى قصري قبل العصر ، لانعم بساعتين من النوم تتيحان لـــي ان اقضي السهرة منتعشا مع اصحابي العشرة : بدر الدين وقمر الدين وشمس الدين وشهاب الدين ونجم الدين ، ثم سيف الدين وحسام الدين وركن الدين وعماد الدين وحصن الدين .

وبدا لي كل شيء سخيفا يثير السأم ، ولو كنت حرا لتركته يفض المشكلة مع التجار ، وعدت الى قصري لانام ، ولكنني لم اكن حرا فـــي التحرك ، فتاجر يمسك بكم عباءتي الايمن ، وثان يمسك بكمها الايسر ، وثالث يقف خلفي واصابعه تطبق علـــى قفاي ، وستة تجار اخـــرون يحيطون بي ، كأنما يخافون ان أغافلهم واجري ـ انا السندباد ـ هاربا.

والحق انني كنت في مأزق خطير ، وان لم اشعر بخطورته وقتئذ . وقد بدأ المأزق في صباح هذا اليوم عندما جاءني تاجر الثياب يطلب ان ادفع له عشرة الاف دينار ثمن عباءة اشتريتها منه من حرير الهند مطرزة بالذهب . فأخرجت كيسي من عبي ، فوجدت فيه اربعة دنانير فقط . فناديت القيم على شؤون القصر ، وامرته بأن يدفع للتاجر عشرة الاف دينار . ولكن قيم القصر هز رأسه وقال :

« لا يوجد تحت يدي فلس واحد » .

ولم يكن في هذا ما يثير انزعاجي ، فلدي مخزن كبير ورثته عـــن ابي مملوء بركائب الجواهر والذهب ، ولم اكن أعرف مقدارها تماما ، فقد عجز مائة حاسب عن احصائها بعد موت ابي ، وظلت بغداد سنتين تتحدث عن هذه الثروة التي لا يستطيع مائـــة كاتب ان يحصوها . فقلت لقيـــم القصر :

« الى المخزن اذن واحضر زكيبة لتدفع منها ما يطلب صـــديق التاجـــر . »

ولكن قيم القصر عاد يهز رأسه قائلا :

« لقد نفدت الزكائب يا سندباد . »

« نفدت ؟!.. كل الزكائب ؟! »

« نعم يا سندباد .. كل الزكائب نفدت . »

« وكيف ..؟ لقد عجز مائة حاسب عن ان يعرفوا عددها ..! »

« لا اعرف يا سندباد ، وانما انت نأمرنا كل يوم بأن نحضر اليـــك زكيبة او زكيبتين ، وفي بعض الايام نحضر لك خمس زكائـــب ، وامس احضرت لك آخر زكيبة في المخزن . »

فاطرقت مفكرا ، لقد افلست اذن ، ومددت يدي اتحسس كيسي ، ثـــم قلـــت :

« انا لا املك الان الا هذه الدنانير الاربعة .؟ »

« نعم يا سندبـــاد . »

وما كاد التاجر يسمع ذلك حتى قفز فوقي ممسكا بخناقي صائحا :

« عباءتي ايها اللص . .اخلع عباءتي والا قتلتك .! »

فالقيت العباءة في وجهه مغتاظا وامرت القيم بطرده مـــن القصر طردا مهينا ، فجذبه القيم من قفاه ودفعه حتى اخرجه مـــن الحجرة ، ولا اعرف ان كان مضى في دفعه حتى باب القصر أم لاطفه واسترضـــاه بعد ان اخفاهما الباب عن عيني ، ولكن التاجر ما لبث ان اذاع نبـــأ افلاسي في بغداد كلها ، فلم تمض ساعة او بعض ساعة حتى هاجـــم قصري كل من يدينني بفلس من تجار بغداد ، ثم ساقوني امامهم الـــى شيخ التجار بتلك الصورة المهينة .

✱✱

ورفع شيخ التجار ، بعد طول تفكير ، رأسه وسألني :

« اتعدني يـــا سندباد ؟ »

« بم يا شيخنا الكريم ؟ »

« بأن تدفع لهؤلاء التجار مائة الف دينار اذا كان الغد . »

« الله المعين يا شيخنا الكريم . »

فصاح التجار جزعين :

« ضاعت اموالنا اذن .. ! »

وقال لي شيخ التجار بعد ان هدأ ثائرتهم :

« لن يعجزك يا سندباد أن تحصل على مائة الف دينار . »

« لا اعرف يا شيخنا الكريم ، ولكنني لا املك الان الا قصري ، وهو من حجر ورخام . »

فالتمعت عينا شيخ التجار ببريق لم تخفه عن عيني النؤابـــة المدلاة من عمامته . ثم قال :

« القصر الذي بناه ابوك لينافس به قصر هارون الرشيد ؟ انـــه يساوي ثروة . »

« ربما يا شيخنا ، لست ادري . »

فصاح احـــد التجار :

« انا اشتريه بخمسين الفا . »

وصاح اخـــر : « اشتريه انا بسبعين الفا . »

وصـــاح ثـــالث :

« علي بمائة الف ادفعها لكم الان فتستقضون ديونكم وترحلون . »

فلوح رابع في وجه الثالث متحديا :

« علي بمائة الف وعشرة الاف . »

وارتفعت الصيحات متداخلة .. مائة الف وعشرون ، وثلاثون .. وخمسون .. وسبعون .. مائتا الف .. ثلاثمائة الف .. اربعمائة الف.

ـ التتمة على الصفحة ٧١ ـ

رحلات السندباد السبع

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٣ ـ

كانت اصواتا متداخلة متباينة .. فيها الاجش والرقيق ، وفيها الغليظ والرفيع ، وفيها الحاد واللين ، وفيها الابح والمشدوخ . وكانت كلها تصيح خمسمائة الف .. ستمائة الف .. سبعمائة الف .. واخذت الايدي تلوح وتحتج ، ثم تلوح وتضرب ، واشتركت تلك الايدي التي كانت تمسك بكمي عباءتي وبقفاي في التلويح والتهديد والضرب ، ورأيت نفسي فجأة وسط هذا السخف حرا لا يقيدني شيء ، فتسللت من بينهم وهم مشغولون عني بالمزايدة . ووجدت نفسي خارج قصر شيخ التجار ترطب نسمة الغروب جبهتي فابتعدت مسرعا ولا زالت اصوات صياحهم في الداخل تلاحقني .

كان علي أن احصل على مائة الف دينار دون ان ابيع قصري الذي احسست بانني لا استطيع ان اتخلى عنه مهما كان الثمن الذي يعرضونه لبيعه ، أن في استطاعتي أن ابيع بعض التحف التي يحفل بها القصر وفاء بهذا الدين ، ولكن علي ان افعل ذلك قبل ان ينتهي التجار من مشاجرتهم ويتنبهوا الى فراري فيلجأوا الى المحتسب ليقبض علي . ومن ثم اسرعت الى قصري لادبر الامر ، واخذت خلال الطريق اهون المشكلة على نفسي ، فهؤلاء التجار حمقى .. ايظنون ان مائة الف دينار تعجزني ؟ ان اللؤلؤة التي تتدلى من الثريا الكبيرة في قاعة الاستقبال تساوي وحدها خمسمائة الف .. ان البساط المنسوج بالذهب الذي يمتد من الباب الكبير ويصعد السلالم حتى يصل الى الردهة الرئيسية يساوي وحده ثمانمائة الف .. ان الابريق الذهبي الذي اغسل به يدي بعد كل طعام يساوي ـ مع طسته ـ اربعمائة الف .. أن المزولة العاجية التي في وسط البستان تساوي وحدها ..... ما هذا ؟ انا سندباد تعجزني مائة الف دينار ؟ انهم حمقى بغير شك .

ولكنني ما كدت اصل الى القصر حتى بدأت اتردد ، أأبيع هذه الاشياء التي واكبت طفولتي وصباي واسعدت شبابي، ووقفت امام المزولة العاجية متحسرا .. أن ابي رحمه الله كان يرسلني خمس مرات كل يوم الى هذه المزولة لارى ان كانت مواعيد الصلوات قد حانت ، وكنت انتهز الفرصة فاتسلقها لالعب فوقها واجعل من اصبعي مؤشرا يلقي ظله كما اشاء ، فاقلب الظهر الى عشاء ، واجعل من العصر مغربا . أأبيعها الان لان بعض التجار يدينني بمائة الف دينار ؟ وتركت المزولة ودخلت من الباب الكبير ، وما كادت قدماي تطآن البساط حتى احسست به يناديني : سندباد .. ايها الخائن الغدار ، اتبيعني بعد ان حملتك عشرين سنة منذ كنت تحبو فوقي صاعدا وهابطا ؟ لا يا بساطي الحبيب .. فلتقطع قدماي ان وطئتا غيرك طول عمري .. السندباد لا يخون ابدا عشرة طالت او قصرت .

واتجهت الى الثريا الكبيرة في قاعة الاستقبال ، وبدأت اضواؤها تتراقص امام عيني .. فتذكرت كيف ان امي كانت تقف تحت هذه الثريا ، واللؤلؤة الكبيرة تعكس فوق وجهها المليح اضواء تزيده ملاحة واشراقا . وخيل الي ساعتها ان وجه امي يتراءى لي باسما تحت الثريا .. أأبيع اللؤلؤة فأحرم من ذكرى هذا الوجه المليح ؟

ووقفت مترددا .. اما ان أتخلى عن واحدة من هذه التحف التي هي جزء من نفسي ، واما أن القي بنفسي بين يدي المستنطقين يعذبونني لاقر بمخابيء اموالي ، فلن يصدق احد انني انفقت كل تلك الزكائب التي عجز مائة حاسب عن احصائها .. كانت مشكلة لا اعرف كيف احلها .. واقبلت جاريتي الزاهية :

« ما بال سندباد يقف حزينا اليوم ؟ »

كان الزاهية جاريتي وسيدتي في آن واحد ، فركعت امامي وركعت امامها :

« أألغنيك يا سندباد لحنا شجيا انفطر له قلب معبد ؟ »

فهززت رأسي ان لا .

« اذن ارقص لك رقصة الكاهنات في الصين ؟ »

وهززت رأسي مرة اخرى .

« اذن آتيك بشراب عتقته الف من الاعوام مرت عليه سعيدة مرحة؟»

وهززت رأسي مرة ثالثة .

« ماذا يحزنك اذن وانت لم تعرف الحزن مرة من حياتك ؟ »

فقصصت عليها حكايتي مع التجار ، وما كدت اصل الى خوفي من المستنطقين حتى ضحكت فاغرقت القاعة باصداء من المرح والسخرية .

« ايضنيك الحصول على مائة ألف دينار ولديك اصدقاؤك العشرة!»

« من ؟ بدر الدين وقمر الدين وشمس الدين وشهاب الدين ونجم الدين ... »

« نعم ، ثم سيف الدين وحسام الدين وركن الدين وعماد الدين وحصن الدين . »

« وما شأن هؤلاء الاصحاب بما انا فيه يا زاهية ؟ »

« الم تنفق عليهم مالك اثناء عسرهم ؟ الم تمنح كلا منهم زكيبة من الدنانير تاجر بها واثرى ؟ ابتنى القصور واقتنى الجواري ؟ »

« اترينهم يقرضونني مائة الف اليوم ؟ »

« لا احسب الا أن كلا منهم ، وقد سمع بما أصابك ، يعد الان مائة الف ليحضرها معه عندما يأتي لينفق سهرته المرحة معك . »

حقا ، كيف غاب عني انني لا أواجه هذه المشكلة وحيدا ، ان لدي اصحابا عشرة ، كلهم اكل من خبزي وشرب من خمري واثرى من مالي . ان الزاهية اصدق فراسة مني ، نعم .. لا بد انهم في طريقهم الان الي لنسمر ونقصف ، كعادتنا كل ليلة ، وفي يد كل منهم كيس به مائة الف دينار .

وصحت بالخدم والعبيد ليمدوا الموائد ويعدوا ادوات الطرب والشراب ، ثم جلست في صدر القاعدة وعلى يميني الزاهية ، وبدأنا ننتظر .

وانقضت ساعة لم يطرق خلالها بابي ، واخذ القلق يتسلل الى قلبي ، اتراهم لن يحضروا ؟ وقالت الزاهية :

« لماذا لا تقطع الشك باليقين يا سندباد فترسل اليهم ؟ »

واطلقت عشرة من عبيدي يسعون نحو قصورهم ، وعاد العبيد بعد ساعة لاسمع منهم ان اصحابي العشرة سافروا .. جميعا سافروا .. واليوم فقط سافروا .. بدر الدين الى سمرقند ، وقمر الدين الى شمرقند ، وشمس الدين الى صمرقند ، وشهاب الدين الى ضمرقند ، ونجم الدين الى طمرقند ، وسيف الدين الى ظمرقند ، وحسام الدين الى عمرقند ، وركن الدين الى غمرقند ، وعماد الدين الى فمرقند ، وحصن الدين الى قمرقند .

وقلت للزاهية :

« افي العالم بلاد بهذه الاسماء ؟ »

وقالت الزاهية :

« نعم ، ولو ارسلت الى غير اصحابك العشرة لسمعت عن كمرقند ولم قند وممرقند ونمرقند حتى تنتهي حروف الابجدية . انها بلاد بنيت بالقدرة التي افقدتك ثروتك التي لا تحصى . »

« لقد فروا مني اذن ؟ »

« لا تيئس يا سندباد ، فلا بد ان نجد مخرجا . »

واطرقت يائسا افكر .. أأبيع اللؤلؤة ام البساط ام المزولة ام الابريق ..؟ ام ادع ذلك كله واستسلم للتجار يسوقونني الى قاضي القضاة ثم المحتسب ومستنطقيه ؟

وطرق الباب طرقا عنيفا :

« افتح باسم امير المؤمنين يا سندباد . »

وقالت الزاهية :

« اهرب يا سندباد . »

الى اين اهرب ، ان المحتسب وهو يطرق بابي بعد شكوى التجار

لا بد راصد عيونه في الطرقات ليمنعني من الهرب ، وحتى اذا تمكنت من الهرب فماذا افعل بعد ؟ أأترك لهم قصري وتحفي يضعون ايديهم عليها ويأخذونها غصبا وفاء لديونهم ، ثم اصبح انا السندباد طريد المحتسب ورجاله ؟

« افتح باسم امير المؤمنين يا سندباد . »

وهل لو فتحت لكم الباب تدعونني ابيع البساط او اللؤلؤة او المزولة لادفع لكم دينكم ؟ او انكم ستأخذونني ، جرا على الارض ، حتى اقبية المستنطقين ؟

« اهرب يا سندباد . »

« والى اين اهرب يا زاهية ؟ »

« افتح باسم امير المؤمنين يا سندباد . »

« اهرب الى امير المؤمنين يا سندباد . »

« الى هارون الرشيد ؟! »

« نعم الى هارون الرشيد . »

« وهل يجيرني هارون يا زاهية وانا ابن من ابتنى قصرا ينافس بـه قصره ؟ »

« افتح باسم امير المؤمنين يا سندباد . »

« امير المؤمنين يا سندباد رجل مثلك يؤمن بأن ليس بالمال وحده يحيا الانسان . »

« نعم ، ولكن ربما بالمال وحده يضيع الانسان . »

« لن يضيعك امير المؤمنين من اجل مائة الف وهو يعطي كل ليلة لقاصديه مائة الف الف . »

« افتح باسم امير المؤمنين يا سندباد . »

وقادتني الزاهية الى قبو في اسفل القصر يفتح على دجلة ، ثم اغلقت خلفي الباب بعد ان باركتني ودعت لي بالتوفيق وتحقيق المراد على يدي خليفة رب العباد .

وعلى شاطىء دجلة جلست افكر في هدوء ، ربما للمرة الاولى في حياتي استطيع ان اجلس لافكر في هدوء . هذا المصير الذي انتهيت اليه صنعته يداي ، فينبغي ان تخلصني منه يداي ، ومنذ الساعة لا اصحاب ولا قصف ، ولا متعة ولا اسراف ، انما هو الصحو والدأب حتى استرد ثروتي واستعيد وجودي . وقبل ذلك ينبغي ان تتاح لي الفرصة لاعود الى قصري حيث ابدأ من جديد . وفي هذا السبيل لا مفر من ان الجأ كما قالت الزاهية الى هارون الرشيد ، فهو كما سمعت يؤمن مثلي بأن ليس بالمال وحده يحيا الانسان ، ولهذا يهب في كل ليلة قاصديه الاف الالاف . وانا ، وان كنت مثله ، فقد استدار لي الزمان وغدرت بي الدنيا ، وليس من بأس في ان يعين زميل يؤمن بان ليس بالمال وحده يحيا الانسان زميلا اخر يعتنق نفس المذهب . فالى قصر هارون يا سندباد .

ولم يعترض حرس القصر طريقي ، ويبدو ان هارون الرشيد امرهم، مثلما كنت آمر حرس قصري ، بالا يصدوا قاصدا عن سبيلي ، فأخذت اسير على البساط السميكة النفيسة ، وكانت كل خطوة اخطوها فوقها تذكرني بالبساط الممتد من باب قصري حتى قاعة الاستقبال . ان القدم لتغوص في بساطي ذاك الحبيب اعمق مما تغوص اقدامي الان في بسط هارون الرشيد ، ايه يا دنيا ، ولكنني سأستعيد كل شيء .. فقط يخرجني هارون من هذا المأزق فأعود سندباد كما كنت .

وكان هارون الرشيد يجلس في صدر القاعة على طنف من حرير الهند محلى بلآلىء الصين ، وفوق رأسه عمامة ضخمة يتألق ماسها الازرق تحت اضواء الثريات الحمراء ، والى جواره صندوق يغرف منه دنانير ذهبية خالصة صافية ويبذرها على الجالسين حيث جلس رجال ذوو عمائم مكورة وجبب منتفخة ، يطوحون لحى طويلة مخضبة ، ويتمتمون بعبارات استحسان وانبهار لرجل احمق يقف بين يدي هارون ويهرف بكلام لا معنى له :

« والارض مع ، روف السما ، فرى لها ، وبنو الدجا ، لهم بنوال، عباسي . »

ولم اكن ، انا المطارد الذي يتحرق تجار بغداد شوقا لدمي ، في حالة تسمح لي بسماع هذا الهراء الذي لا معنى له ، فتقدمت نحو هارون الرشيد ، ورفعت الاحمق المهراف بكتفي ثم وقفت بدلا منه بين يدي هارون : « السلام عليك يا امير المؤمنين . »

« عليك السلام ايها الشاعر المفلق ، اجئتنا مادحا ؟ »

« لست بشاعر يا امير المؤمنين . »

« عليك السلام ايها المحدث الثقة ، اتروي احاديث عن جدنا العباس ؟ »

« لست بمحدث يا امين المؤمنين . »

« عليك السلام ايها النخاس النقادة ، اجئتنا بجوار شركسيات ؟ »

« لست بنخاس يا امير المؤمنين . »

« عليك السلام ايها المضحك الممراح ، اجئتنا بنوادر طريفة ؟ »

« لست بمضحك يا امير المؤمنين . »

«عليك السلام ايها المغني المطرب، اتطربنا بأدوار من خفيف الثقيل؟»

« لست بمغن يا امير المؤمنين . »

« عليك اللعنة اذن . ايها الحراس ، ادبوه ثم القوا به في الجب.»

وتقدم عشرة من ذوي الاجسام الفارعة وانهالوا علي ضربا وانا اصرخ:

« انا سندباد يا امير المؤمنين ، انا سندباد . »

ولكن صوتي ضاع وسط صيحات الاستحسان للرجل الاحمق الذي عاد يهرف بهرائه الذي لا معنى له : « اقدام عم ، رن في سما . »

وسقطت ضربة شجت مني الرأس .

« حة حاتم ، في حلم اح . »

وانهال سوط مزق مني اللحم .

« نف في ذكا ، ء اياس . »

وارتطمت لكمة رضت مني العظم .

وصاح احمق اخر : « الامير فوق من ذكرت . »

وحملني الرجال العشرة وسط ترديد الحمقى :

« نعم ، فوق من ذكرت ، فوق من ذكرت . »

وهبطوا بي سلالم لا حصر لها ، وبعد كل سلمة ، كانت اضواء الثريات الحمراء تتلاشى ، وصياح الحمقى يتضاءل ، حتى لم أعد ارى شيئا او اسمع شيئا . وعندئذ ايقنت انني في الجب .

والقاني الحراس العشرة على الارض ، وسدوا فوهة الجب بحجر طاحون ، ثم عادوا يصعدون السلالم التي لا حصر لها حيث ضوء الثريات المتلالىء وصياح الحمقى الذي لا معنى له . وبقيت وحدي يا سادة يا كرام ، ملقى في الظلام، م شدوخ الرأس ، ممزق اللحم ، مرضوض العظم ، وفي اذني لا تزال تتردد اصداء الصياح :

« فوق من ذكرت ، نعم ، فوق من ذكرت . »

وادرت عيني حولي تبحثان فلم تريا الا الصمت ، ومددت كفي تتحسسان فلم تتلمسا الا الظلام ، فقلت في نفسي يا سادة يا كرام : هذا جزاؤك يا سندباد . ما لك انت وما لهارون الرشيد ؟ ابوك ابتنى قصرا ينافس به هارون الرشيد ، وانت تلجأ وقد دارت بك الايام لتستجدي هارون الرشيد .؟ حسن .. ها انت ملقى تحت جدران قصره لا يسمع بك احد ، ولا يخطر مكانك على قلب بشر ، حتى قلب اولئك التجار الذين يقلبون الان بغداد بحثا عنك .

واخذت يا سادة يا كرام اقارن ما انا فيه بما كنت فيه بالامس من عز ظننته لا يفقد ، وراحة ظننتها لا تحول ، فانتهيت الى الموعظة والاعتبار ، فالزمان ليس له امان ، وكل نعيم مآله الى الزوال ، وما طار طير وارتفع الا كما طار وقع ، واخذت الوك في ذهني جملة موزونة منغمة : لكل شيء اذا ما تم نقصان . ولم اكن شاعرا لامضي بها الى الشطر الثاني ، فتركته لرجل يأتي بعدي يكون حظه من الشعر اوفى واتم ، وعدت اقول في نفسي : يا سندباد ، انت لا تملك الان الا ان تصرخ ، ولن يسمع صراخك مخلوق ، اللهم الا هارون وجنوده ، واولئك ليس فيهم غناء ، فليس لك الا ان تسلم امرك لله وتنام ، وقد سمعت ان في النوم سبع فوائد ، لا اذكر منها الان الا الامل في ان استريح ساعة

او بعض ساعة من التفكير والتدبير .

فاضطجعت وتنيت ذراعي اتخذها وسادة تقي رأسي المشجـــوج صلابة ارض الجب الصخرية ، ولكنني شعرت بشيء صلب حاد يخزنـي في زندي ، فتحسسته في الظلام حتى امسكت به ، واخذت اتعرفـــه بأصابعي . وعندما عرفته يا سادة يا كرام اجتاحت بدني رعدة ، فقـــد وجدته عظمة ساعد لا ريب في انها كانت لنزيل سبقني الـــى الجب . وبزغت هذه الحقيقة في عقلي فلدغتني كالعقـــرب ، هـــل يتـــرك هارون الرشيد نزلاء الجب حتى يموتوا جوعا وعطشا وخوفا ؟ ايكون هـــذا مصيري ايضا ؟ انا السندباد ، اترك هنا حتى اصبح رمما كصاحب هذه الساعد ؟ اذا كان هذا مصيرك يا سندباد فتعسا لك ، وتعسا لتلـــك اللحظة التي اشارت فيها عليك الزاهية ان تقصد هارون الرشيد !.

والتحسر على ما فات قلة عقل ، والامل في الخلاص من هذا الجب جنون ، فالعقل ان اقنع بحاضري ، واذا كنت سأموت جوعا وعطشا بعـد ايـام ، فانني لا زلت حيا حتى الان ، وسأظل حيا هذه الايام ، فلا معنى لان اقضيها نائما وسط رمم الموتى ، فانا لا احب الموت ولا الموتى ، ان ذكر الموت امامي يبعث في قشعريرة لا تفارقني ويجعلني احلم احلامـــا مزعجة ، وليس ثمة مبرر لاقضي نومتي الاخيرة احلم بالرمم والاشبـــاح والعفاريت . فلأنا بنفسي اذن عن رمم هؤلاء الموتى التي لا اشك في انها تحيط بـــي .

واخذت احبو في الجب اتحسس بيدي طريقي مبتعدا ماوسعني الابتعاد عن العظام الكثيرة الملقاة حولي . وما كدت اشعر بأن اصابعـي لم تعد تلمس عظاما اخرى حتى اضطجعت في شيء مـــن الطمأنينة ، وعدت اثني ذراعي لاتخذها وسادة ، ولكنني احسست بشيء اخـــر يلمس زندي ، ولم يكن هذه المرة صلبا حادا ، وانما كان طريا لينا مس ذراعي في رفق ، فأخذت اتحسسه لاتعرفه ، ولمست اصابعي زنـــدا مكسوا باللحم ، ثم ارتفعت ساعد فكتف ، ثم اخذت تسير مـــع الكتف حتى لمست عنقا وبدأت تتخلل لحية كثة . اتراني نايت عن العظام النخرة لاجاور الجثث المتعفنة ؟ واحسست بقشعريرة جعلت اصابعـي تطبـــق على اللحية في عنف ، وعندئذ سمعت صوتا ضعيفا يقول في هدوء :

« اترك لحيتي يا بني ..! »

هو اذن حي ..!.. ولست وحدي الحي وسط الرمم .. فهتفت في فرح صادق : « مرحبـا بـك يا شيخ ..! »

« ارقد بجانبي يابني والزم الصمت . »

« لمـاذا ؟ »

« لتنتظر الاسد معي . »

« أي اسد يـا شيخ ؟ »

« الست من بغداد ؟ »

« بلـــى . »

« الم تسمع عن الاسد الذي يأتي كل ليلة تحت قصر هـــارون الرشيد ، فيزأر زأرة واحدة ترتج لها جدران القصر ، ثم يذهب . »

« بلى ، سمعت بهذه الخرافة . »

« ليست خرافة ، فقد رأيته بنفسي . »

« متـــى ؟ »

« كل ليلة منذ القي بي هنا . »

« اتتكلم جـادا ؟ »

« من كان مثلي ينتظر الموت لا يهزل ابدا يابني . »

« اذن ، فالاسد حقيقة ؟ »

« وستراه يفعل ذلك ؟ »

« لا احـــد يعرف . »

« ولماذا لم يقتله هارون وجنوده ؟ »

« وهل يقتلون شبحا يابني ..! »

« هو شبـح اذن ؟ »

« بـــل اسـد . »

« انت تحيرني يا شيخ . »

« مثلما تحيرت طول حياتي يابني . »

« زدني حديثا عن هذا الاسد . »

« ستراه قبل ان تموت . »

« وهل من الحتم ان نموت يا شيخ ؟ »

« انا اموت الان ، وستلحق بي انت بعد يوم او يومين ، هـــذا قضاء الله وهارون . »

« ولكني لا اريد ان اموت . »

« لا تريد ..؟! ولماذا جئت هنا اذن ؟ »

« لو خيرت ما جئت ، وانما القي بي هارون القاء . »

« كنت تستطيع تجنب هذا المصير . »

« وكيـف ؟ »

« بأن تمدح هارون . »

« لست بشاعر يا شيخ . »

« كنت تستطيع ان تروي له احاديث عن جده العباس . »

« لست بمحدث يا شيخ . »

« كنت تستطيع ان تضحكه او تطربه ، او تأتيه بالجواري الحسان مثلـــي . »

« انت كنت تأتيه بالجواري الحسان ؟ »

« نعـــم . »

« فلماذا غضب عليك فالقاك في الجب ؟ »

« لانه اراد الجارية التي لا استطيع ان ابيعها له . »

« ومـن هـــي ؟ »

فتجاهل الشيخ سؤالي وقال :

« ما دمت لست بشاعر ولا محدث ، ولست بمضحك او مطـــرب او نخاس ، فما الذي ادخلك قصر هارون الرشيد ؟ »

فشرعت اقص عليه حكايتي منذ مات ابي حتى القي بي في الجب ، وعندما انتهت الحكاية كان الشيخ قد مات .. مات قبل ان يخبرنـــي عن الجارية التي لا يستطيع ان يبيعها هارون الرشيد ، وخلفني وحدي في الجب .. مع الظلام ، ومع لحيته الكثة التي غاضت منها الحياة ، ومع تعب شديد يثقل جسدي ونعاس لا يقاوم يطبق جفنـي ، فثنيت ذراعي ونمت .

ولا اعرف كم مضى علي وانا نائم ، ولكنني صحوت مذعورا علـــى صوت هو قصف الرعد او انهيار الجبل ، فوجدت الاسد امامي يزأر ، رافعا رأسه الى اعلى ، نافشا لبده في غضب ، واستطعت ان الح فـــي الظلام عينيه تتوهجان كالجمر تكادان ان تضيئا ظلام الجب . وكـــان صوته لا يزال يجلجل ممطوطا متردد الاصداء كأنه صراخ مائة عبـــد يعذبون بالحديد المحمي ، واحسست بجدران القصر ترتعد من فوقـــي كلص بين يدي المحتسب واسقطت في ارتعادها بعض الاتربة وشظايـــا الصخر وكادت تشج رأسي المشجوج سلفا ، فجعلتني اتخلص من خمـار النوم واستعيد كل ما مر بي خلال يومي ذاك الاغبر . وانبثقت في عقلي فكرة .. هذا الاسد الواقف امامي ، من ايـن جاء ؟ هو لم يهبط مـــن السماء ، ولم ينبت من الارض ، فلا بد ان للجب منفذا يدخل منـــه ويخرج دون ان يراه هارون وجنوده ، واملي يرتهن بالعثور على هـــذا المنفذ . وقررت يا سادة يا كرام ان اتبع الاسد فـــي خروجه دون ان ابالي اشعر بي فأكلني ام تركني ، فأنا ، ما لم اخرج من الجب ، ميـت كالنخاس الشيخ لامحالة ، والموت بين فكـي اسد خير مـــن الاحتضار البطيء بين الرمم في الظلام .

ومن ثم هببت من رقدتي واضعا عمامتي فوق رأسي بيـد ، داسـا نعلي في قدمي باليد الاخرى . وكان الاسد قد انتهى من زئيره واخـذ يتلفت حواليه ، وخيل الي لحظة انه رآني ، فقد رأيت جمر عينيـــه يزداد توقدا في مواجهتي ، ولكنه استدار ومضى راجعا من حيل اقبل ، فاسرعت خلفه . واخذ الاسد يسير وانا اتبعه ، ويسير وانا اتبعه ، ثم يسير وانا اتبعه ، حتى احسست بقدمي تتورمان . وكانت ارض الجب صخرية مغطاة بحصى مدبب ، فاصبح وطء قدمي يبعث فيهما الما يكاد

يفقدني الوعي ، ولكنني لم اكن املك الا ان اسير خلف الاسد ، فلم يكن لذلك بديل الا ان ارقد منتظرا ان ألحق بالشيخ النخاس . وخيل الى اننا سرنا ـ الاسد وانا ـ طول الليل ، وان النهار لا بد قد اشرقت شمسه الان على من يعيشون فوق سطح الارض . وشدد ذلك من عزمي، وجدد ما وهن من جلدي ، فالمخرج لا بد قريب ما دام الاسد يأتي كل ليلة في منتصفها ، واخذت اغالب الالم في قدمي واسعى خلف الاسد ، ثم اخذ الالم يتسلل من ساقي الى بطني ، فلم اعد استطيع السير ، فانكفأت على الارض واخذت احبو . ويبدو ان الاسد قد تعب مثلي، او انه كان يدرك انني اتبعه ولم يشأ ان افقد اثره ، اذ ابطأ في خطوه حتى تساوق مع حبوي .ولكن الالم عاد يزحف من بطني الى صدري ، ثم اخذ يتخلل عظام رأسي المشجوجة ، وبدأت فكرة مريحة لها خدر لذيذ تسيطر علي .. انني أموت الان بغير شك ، فلماذا لا اموت في هدوء كما مات الشيخ النخاس ، وما جدوى هذا السعي المرهق فوق الحصى وشظايا الصخر ؟ ليس ذنبي انني ضعفت ، لقد بذلت جهدي ، ولكن الجب كما ارى لا نهاية له ، فلارقد هنا في انتظار الموت مستريح الضمير مطمئن النفس .

وهممت بان انبطح على صدري عندما رأيت الجمرة المتقدة تتوهج من بعيد ، وظننتها للحظة عين الاسد ، ولكنها كانت جمرة واحدة وللاسد جمرتان ، فاعدت النظر محددا بصري المرهق اليها ، كانت بعيدة كالنجم وان كانت لا تخفق ، وخيل الي ان نسمة هواء تهب على وجهي الذي مزقته سياط هارون وجنوده ، كانت نسمة حارة ليست لها عفونة هواء الجب . اتراها المنفذ الذي يدخل منه الاسد .. ؟

وتبخرت ـ في لحظة ـ فكرة الموت المريحة ذات الخدر اللذيذ ، وحل محلها امل شقي مهلك ، ولكنه امل يستحق على اية حال ان ابذل في سبيله جهدا جديدا ، فشرعت احبو نحو الجمرة البعيدة ، واخذ حبوي يزداد بطئا وعسرا ، ولكن الجمرة كانت تقترب ، ثم استحال حبوي الى زحف ادمى كفي وركبتي ، ولكن الجمرة كانت تزداد اقترابا، وكلما دنوت منها اتسعت رقعتها وتميز نورها حتى استطعت ان اتعرف فيها فوهة تنفتح الى النور .

وتنبهت فجأة الى انني لم اعد اسمع وقع خطوات الاسد ولا اشعر بزفرة انفاسه ، وتذكرت ايضا انني لم اسمعهما منذ لمحت عيناي الفوهة ،ترى اين ذهب ؟ هو لم يخرج من الفتحة بغير شك ، فلم تكن تفصلني عنه سوى خطوات قليلة . ترى اين ذهب حقا ؟ ام تراه لم يكن موجودا على الاطلاق ؟ لقد سمعته يزأر ، وشعرت بارتعاد جدران القعر لزئيره ، بل ورأيت عينيه المتوقدتين ،ولكن اين هو الان ؟ ايصدقني الناس في بغداد عندما اخبرهم بانني رأيت الاسد الزائر تحت قصر هارون ؟ بل هل اصدق نفسي عندما اخرج الى النور واستعيد قوتي وحريتي ؟ ام تراني اعود الى ظني القديم بانه خرافة ؟ خرافة ؟! ولكنني اخرج الان بفضله من جب هارون الذي لم يخرج منذ احد قبلي ، نعم ، ها انذا اصل الى الفوهة التي يكاد نورها يعشي عيني بعد ليلة في ظلام الجب الحالك ، وها انذا ازحف خارجا منها برأسي ، ثم بكتفي ، ثم يخرج جسمي منها جزءا جزءا حتى احس بقدمي المتورمتين تمسان الارض خارج الجب . ولكن اين الاسد ؟

وتجمعت الام الليلة السابقة كلها على جسدي ، فلم استطع ان امضي في التساؤل والبحث عن الاسد ، وتمددت على الارض ،وكانت مكسوة بعشب اخضر املس ، واستسلمت لنوم عميق .

ولست ادري كم مضى علي وانا نائم ، ولكنني صحوت اثر احساس بسائل حار ينسكب على وجهي ويبلل كل جسدي ، وشعرت بشيء انعم من حرير الهند ، وان كان ثقيلا لزجا يمسح وجهي . وخيل الي لحظة ان الاسد يتذوقني ليرى ان كان لحمي شهيا ، فشلني رعب عجبت له .. انا الذي تبعت الاسد طوال الطريق من الجب الى هنا غير مكترث بان يراني ويأكلني . ولكنني احسست بعد ان خرجت من الجب بان الحياة حلوة تستحق ان اعيشها طولا وعرضا . ولو كان الاسد اكلني في الجب لما اكترثت ، بل ربما اسعدني ان يخلصني من الموت البطيء جوعا وعطشا وخوفا ، اما ان ينتظر حتى اخرج الى النور واطمئن الى نجاتي ثم يأتي ليأكلني ، فهذه مداعبة سخيفة لا ارضاها .

واحسست بقوة غاضبة تنبث في ذراعي فارفعهما وادفع ذلك الشيء الثقيل اللزج دفعة قوية . وما كدت افعل حتى سمعت صوتا رقيقا جميلا اشبه بصوت جاريتي الزاهية يقول :

« سبحان الله ، لقد افاق ، سبحان الله . »

ولم اصدق اذني ، اكتبت لي النجاة حقا ، ام انها هلوسة الاحتضار ؟ ولكن شكي تبدد عندما سمعت جمعا لا شك في انه كبير يرد بذات الصوت الرقيق الجميل :

« سبحان الله ، لقد افاق حقا ، سبحان الله . »

لقد نجوت ما في ذلك ريب .. ! ففتحت عيني سعيدا مستبشرا بتلك الاصوات الناعمة الجميلة ، ولكنني ما لبثت ان صحت في فزع :

« سبحان الله .. ! »

فقد رأيت حولي جمعا من العماليق ، سيقانهم كمآذن المسجد الجامع ، واجسادهم تطاول الجبال . ولم تكن ضخامتهم وحدها سبب فزعي ، فان الداهية كانت في وجوههم .. كانت وجوه حيوانات على اجسام بشر . وبعيدا بعيدا ، فوق الجسم الذي يطاول الجبال،تستقر رأس مثل القبة الكبرى في قصري ، ووجه ملامحه تلخص تلخيصا محكما ملامح وجوه الحيوانات التي على وجه الارض .. البقر والتماسيح والتياتل والحمير ... الخ ، وتبرز منه نابان كل منهما كحجر الطاحون ، ويتدلى لسان مثل قوس قزح .

اين اذن تلك الجواري اللاتي سمعت اصواتهن تسبح الله ؟

وكان واحد من هذه العماليق ، يبدو انه كبيرهم ، منحنيا فوقي يلعقني بلسانه ، ذلك الشيء الثقيل الناعم اللزج الذي افزعني عند يقظتي ، وكان لعابه يتساقط منه دافئا فيغسل جراحي . ولاحظت ، دهشا ، ان جراحي تلتئم بسرعة عندما يمسها لعابه الدافيء ، فعدت اصيح :

« سبحان الله .. ! »

والتف العماليق حولي في شيء من الدهشة ، واخذ كبيرهم يتفحصني بعينين كأنهما مغارتان في جبال القمر ، ثم قال :

« سبحان الله .. »

وكان يا سادة يا كرام يتحدث بلغة عدنان ، وينطق بافصح لسان، وكان صوته رقيقا عذبا ، بل اكثر عذوبة من صوت جاريتي الزاهية ، فاخذت اعجب بقدرة الرحمن ، كيف يصدر هذا الصوت الحلو من هذا الجسم العملاق الذي يطاول الجبال ، ومن هذا الوجه الذي تلخص ملامحه وجوه حيوانات الارض . ؟!

وعاد كبيرهم يقول :

« سبحان الله ،ما انت ؟ سبحان الله . »

فقلت وقد طمأنني صوته العذب :

« انا سندباد . »

« سبحان الله ، وما سندباد ؟ سبحان الله . »

« انا رجل من بغداد. »

وعجبت عندما اخذ جمع العماليق يصيح في دهشة :

« سبحان الله .. ! من بغداد ؟ سبحان الله . »

« نعم ، من بغداد . »

فقال كبيرهم غير مصدق :

« سبحان الله .. ! .. بغداد ؟ .. تلك القرية التي في الطرف الاخر من الارض ؟ سبحان الله . »

ولم اتصور انني سرت في ليلة من طرف الارض الى طرفها الاخر ، واعتقدت ان العملاق قد اخطأ سماع الكلمة ، فقلت له :

« بغداد ليست من اقصى الارض ، بل هي وراء هذا الجبل . »

« سبحان الله ، ليس وراء هذا الجبل الا صحراء الشيخ بهاء الدين ، ومسيرتها الف عام . سبحان الله . »

وخيل الي ان العملاق مجنون ، واكد لي جنونه تكراره جملة

سبحان الله ، فقد لاحظت انه يبدأ بها كلامه ثم يختمه بها ايضا ، وسواء كان مجنونا او كنت انا المجنون ، فانه يبدو وديعا ، وقد ابسرا جراحي بلعابه العجيب ، فلم اجد من الكياسة ان اتشاجر معه حـــول موقع بغداد ، فسألته : « ومن انتم ؟ »

« سبحان الله ، نحن شعب الدناسير ، سبحان الله . »

وبدأ تكراره لسبحان الله في غير مناسبة يضايقني ، فقلت له :

« الا تستطيع أن تتحدث معي دون سبحان الله هذه ؟ »

« سبحان الله ، لا استطيع ، سبحان الله . »

« ولماذا ؟ حتى لو كنت درويشا فليس ينبغي ان تكررهـــا دون مناسبة ، ان الدراويش في بغداد .... »

فقاطعني قائلا :

« سبحان الله ، لست درويشا ، انما نحن شعب خلقنا اللـــه لنسبحه فلا نستطيع ان نفعل شيئا او نقول قولا دون تسبيحه،سبحان اللـــه . »

وزاد هذا من اطمئناني اليهم يا سادة يا كرام ، فلا شك في انهم لا يؤذون احدا ما دام كل عمل يأتونه وكل قول ينطقونه مبارك بتسبيـــح الله في بدايته ونهايته . وبدأت احس الاعجاب بوداعة هذا الجنـس العجيب ، بل بدأت اتحسر على انني خلقت بشرا ولم اخلق مثلهـــم ، فلست احسب ان فيهم من يضطهدون المفلس او يتخلون عن الصديق وقت الشدة ، ولا اظن ملكهم يحتاج الى جب يلقي فيه بكل من لم يمدحـــه او يهدهد غرائزه . على ان ما خفف من حسرتي ثقتي من انني سأعيـش بينهم بقية عمري اسبح الله مثلهم في كل عمل آتيه او قول انطقـه ، وانعم بما يعيشون فيه من دعة وطمأنينة ، وسحقا لهارون وجنوده ..

ومن ثم صحبتهم الى ملكهم ليقدموني اليه واسمعه قصتي ، وفي الطريق لم استطع ، وانا اعدو ، ان الحق بخطوهم البطيء ، فقد كان الوحد منهم يقطع في كل خطوة فرسخا ، ولاحظ كبيرهم انني الهث دون ان الحق بهم ، فحملني يا سادة يا كرام بين اصابعه في رفق ، وهكـذا سار الجميع وانا معهم نسبح الله حتى وصلنا الى المدينة . ولاحظت يا سادة يا كرام ان ليس حولها اسوار ولا حصون وليس لهـــا حراس ولا ابواب ، فقلت لكبيرهم : « الا تخشون اللصوص ؟ »

« سبحان الله ، وما معنى لصوص ؟ سبحان الله . »

« اولئك الذين يسرقون مال غيرهم ومتاعه ؟ »

« سبحان الله ، وما معنى يسرقون ؟ سبحان الله . »

فأخذت افسر له معنى السرقة حتى فهم عني بعد جهد واضح ، فقـــال :

« سبحان الله ، ليس فينا محروم ولا طمـاع ، وليس لدينـــا شيء يملكه ليسطو عليه فرد اخر . كل ما في المدينة ملك لكل ما فـي المدينة . سبحان الله . »

وادر كت يا سادة يا كرام ان هؤلاء الناس يعيشون في ما يشبـه الجنة الموعودة ، وحمدت الله على ا ن القى بي بينهم في حين كان يمكن ان يقودني الجب الى صحراء جرداء يسكنها لصوص وقطاع طريق ، او الى غابة موحشة تملأها الكواسر والسباع . لقد فارقت بغداد طريـــدا مفلسا اهرب بحياتي من الموت فعوضني الله خيرا من مالي المبـــدد وامنـي المفقود .

واثناء سيرنا في طرقات المدينة نحو قصر الملك ، لاحظت ان كـل ما حولي بيوت متشابهة ، ليس فيها زخرف ولا زينة ، بل ليس فيهـا نوافذ ولا ابواب ولا استار . فسألت كبيرهم عن السر في ذلك فقال :

« سبحان الله ، الزخارف والزينة ترف يتمايز به الافراد،وليس فينا ما يحب ان يمتاز عن سواه في ملبس او مسكن . واما الابـواب والنوافذ والاستار فلا نعرفها ما دمنا لا نعرف اللصوص . سبحـــان اللـــه . »

« فلتكن لرد الابصار عمن في داخل البيوت . »

« سبحان الله ، ولماذا ينظر احدنا الى ما في داخل بيت غيره ؟ اننا نتخذ البيت وقاية من الريح والمطر ليس غير . سبحان الله . »

« عندكم ريح ومطر اذن ؟ »

« سبحان الله ، اتحسبنا لا نعيش في الارض ؟ سبحان الله . »

ويبدو ان الحديث عن الريح والمطر ذكر واحدا منهم بالجو ـ وكان باردا ـ فقد قال لكبيرهم :

« سبحان الله ، الا تحس بأن الجو حار ؟ سبحان الله . »

فقال كبيرهم : « سبحان الله ، هو حار حقا ، سبحان الله . »

وردد الاخرون :

« سبحان الله ، ما اشد حرارة الجو .. ! سبحان الله . »

وعجبت يا سادة يا كرام من اتفاقهم على ان الجو حار ، مع انني ارتجف من البرد . وقلت في نفسي ، لعل جو بلادهم يختلف عن جـــو بلادنا ، وما احسبه بردا هو حر بالنسبة اليهم . واخذت افكـر فـــي قلق : كيف يكون الجو البارد في بلادهم اذن ؟ وهل سوف اتمكن من تحمله ؟ فقلت لكبيرهم ، وهو لا يزال يحملني بين اصابعه :

« عجيب حقا ان تحسوا بان الجو حار مع انني اشعر ببرد شديد. »

فقال كبيرهم :

« سبحان الله ، تشعر بالبرد ؟ سبحان الله . »

« نعم ، وبرد قارس ايضا . »

« سبحان الله ، اذن فالجو بارد ، سبحان الله . »

وردد الاخرون :

« سبحان الله ، نعم ، الجو بارد . سبحان الله . »

فقلت في دهشة :

« ولكنكم قلتم منذ لحظة انه شديد الحرارة ! »

فقال كبيرهم :

« سبحان الله ، قال واحد منا انه حار ، فهو اذن حار ،وقلـت انت انه بارد ، فهو اذن بارد ، نحن لا نخالف احدا فيما يقول ، سبحان اللـــه . »

« ما معنى هذا ؟ اليس لاحدكم رأي خاص ؟ »

« سبحان الله ، ما معنى رأي ؟ سبحان الله . »

لا ـ قلتها في نفسي يا سادة يا كرام ـ كل شيء يمكنني ان افسره الا الرأي ، هو بديهية تعرف بالسليقة ، ومن لا يعرفها فلن يفهمها ولـــو فسرتها له في الف سنة . وعاد كبيرهم يسأل :

« سبحان الله ، ما هو الرأي ؟ سبحان الله . »

فقلت لاضع حدا لتساؤله الذي اثرته :

« لا شيء ، هو نوع من الفساد لا تعرفونه . »

« سبحان الله ، فساد؟ وما معنى فساد ؟ سبحان الله . »

فصمت يا سادة يا كرام ، وبدأت اسأل نفسي : اتراك يا سندباد ستنعم حقا بالحياة مع هؤلاء العماليق ؟ ان نصف ما تعرفه لا يعرفونه ، ونصف ما يعرفونه لا يمتعك ان تعرفه . ولكنني لم امض كثيرا مع هـذا التساؤل ، فحسبي أن يتيحوا لي حياة هادئة بلا اخطار ولا متاعب .

ولما وصلنا الى قصر الملك لم ادهش عندما رأيته بيتا لا يختلف في شيء عن بيوت المدينة ، وليس له ابواب ولا حراس . الم يقل لـــي كبيرهم أن احدا منهم ـ حتى ولو كان الملك ـ لا يحب ان يتميز عـــن الاخرين في ملبس او مسكن ؟ وانهم لا يعرفون اللصوص ولا السرقة ؟

واستقبلني الملك في ترحيب ، وكان لا يتميز عنهم الا في انـــه اضخمهم جسدا واقبحهم وجها وان كان صوته احلى من اصواتهم.واخذ يسمع مني اخبار الناس في بغداد وهو لا يفتأ يردد :

« سبحان الله ، هذا الشعب الذي اسمه البشر شعب عجيـب حقا ، سبحان الله . » وعندما سمع قصتي مع تجار بغداد قال :

« سبحان الله ، انتم اذن تشتغلون وتتخاصمون وتتقاضون، ولكن لماذا ؟ سبحان الله . »

فشرحت له يا سادة يا كرام كيف اننا ـ معشر البشر ـ لا بد ان نعمل حتى لا نموت جوعا ، وان حرصنا على الا نموت جعلنا نعمـــل ونختزن ثمار عملنا اتقاء لاحداث الزمان وتقلباته ، وان الامر تطور حتى اصبح الذهب يختزن حبا في الذهب نفسه . وقد ابدى الملك والحاضرون

جميعا عجبهم من هذا ، واشار الملك الى الارض تحته قائلا :

« سبحان الله ، نحن لا نعمل ، ومع ذلك فالذهب كما ترى يغطي وجه الارض عندنا ، سبحان الله . »

ونظرت حيث اشار، فحدقت ثم اطلت التحديق ، كانت ارض المدينة كلها مغطاة بالذهب الخالص ، وقد اختلط بالتراب فانطمس بريقه الا عن الاعين الفاحصة . واخذت اعجب بدوري من اين لهم كل هذا الذهب؟ وكيف يتركونه في التراب هكذا ؟ وعندما لاحظ الملك عجبي قال :

« سبحان الله ، وماذا نفعل بالذهب ؟ اننا لا نجوع ابـــدا ، سبحان الله . »

وظننت انهم من جنس لا يأكل ولا يشرب ، وبدأت اشعر بالخوف على نفسي ، فانا ــ رغم اطمئناني الى الحياة بينهم ــ لن استطيع ان اقضي ايامي دون طعام او شراب . وجعلتني الاشارة الى الجوع اتذكر انني لم اذق طعاما منذ صباح الامس ، فاحسست بقرص الجوع في بطني، ومن ثم قلت للملك :

« انا لا استطيع ان اعيش مثلكم دون طعام او شراب ، فانا بشر ولا بد ان آكل واشرب . »

فقال الملك :

« سبحان الله ، ومن قال لك اننا لا نأكل ولا نشرب ؟ نحن ايضا لا نستطيع ان نعيش دون طعام . سبحان الله . »

« هل تأذن اذن باحضار بعض الطعام لي ؟ »

فقال الملك :

« سبحان الله ، لماذا لم تقل انك جائع ؟ سبحان الله . »

« سبحان الله ، هذا ابني ، وسيعجبك لحمه الطري. سبحان الله. »

ثم لوى رقبة ابنه فنزعها عن جسده واخذ يفسخ اعضاءه ، وانا اصيح في فزع : « ماذا تفعل ايها الملك ؟ بربك ماذا تفعل ؟ »

فقال في مرح وهو يضع امامي شريحة من فخذ ابنه :

« سبحان الله ، انا واثق بان لحمه سيعجبك ، سبحان الله . »

ثم اخذ يمزق بقية ابنه ويلقي بشرائح لحمه الى الجالسين الذين شرعوا يلوكونه في تلذذ واطمئنان .

ولم اصدق عيني يا سادة يا كرام ، وخيل الي انني في كـــابوس ثقيل .. كل ما مر بي منذ القي بي في الجب كابوس مفزع ، فاغمضت عيني داعيا الله ان يوقظني منه ولو على الجب الرهيب . كنت افضل ان اصحو فاجد نفسي لا ازال في الجب مع الرمم والجيف والظـــلام والخوف على ان يكون هروبي الى شعب الدناسير حقيقة . ولكنني لم اصح ، فانا غير نائم ، وانا لا احلم ، وهؤلاء الذين يأكلون لحم ابن ملكهم واقع حي ماثل امامي .

ولاحظ الملك والحاضرون انني لا آكل ، فنظروا الي متعجبين ، وقـــال الملـك : « سبحان الله ، لماذا لا تأكل ؟ سبحان الله . »

واعجزني التقزز والرعب عن الكلام ، فصمت . واساء احـــد الحاضرين ــ وكان كهلا ــ فهم صمتي ، فقال وهو يتقدم نحو الملك :

« سبحان الله ، لعل سندباد لا يسيغ لحم الصغار ، فليتذوقني انا .. ربما اعجبته ، سبحان الله . »

ووضع رأسه بين يدي الملك ، فلوى عنقه وشرع يفسخ اعضاءه . وعندئذ لم املك الا ان اصرخ :

فنظر الجميع الي في دهشة شديدة ، وقال الملك :

« سبحان الله . وماذا تريدنا ان نأكل ؟ سبحان الله . »

ولا اعرف ماذا فعلوا بعد ذلك ، فقد فقدت وعيي من الرعب . وعندما افقت وجدت نفسي وحدي على فراش من حجر ، وكان الظـــلام يغطي كل شيء في المدينة ، والصمت يسودها ، فادركت ان العماليق ناموا ، فتسللت من الفراش ثم من البيت الذي بلا ابواب ، واخذت اجري في طرقات المدينة عائدا الى فوهة الجب .

اتراني نجوت من شعب الدناسير حقا ؟ وماذا حدث لي بعـــد ان خرجت من مدينتهم ؟ هذا ما سأحكيه لكم في رحلتي التالية .

عبد الرحمن فهمي

لجنة التاليف المدرسي

بعض ما اصدرته من الكتب المدرسية

المـروج

سلسلة كتب حديثة مصورة في القراءة العربية تقـع في ستة اجزاء ويلحق بها كتاب ((المروج الملونة)) اعد خصيصا لحدائق الاطفال
(اوصت وزارة التربية الوطنية بتدريسها في مدارس لبنان)

مراحل القراءة

سلسلة جديدة مصورة في القراءة العربية تقع فـــي خمسة اجزاء ولها مرحلتان تمهيديتان بعنوان ((مراحل الالفباء))

مراحل الادب العربي

سلسلة في المطالعة والادب لمرحلة التعليم الثانوي تقع في اربعة اجزاء

المطالعة التوجيهية

سلسلة حديثة مصورة في المطالعة والادب لمرحلة التعليم الثانوي . تقع في اربعة اجزاء

كيف اكتب

سلسلة كتب حديثة مصورة في الانشاء العربي للصفوف الابتدائية تقع في اربعة اجزاء

الجديد في قواعد اللغة العربية

سلسلة كتب حديثة مصورة في القواعد العربية للصفوف الابتدائية تقع في اربعة اجزاء
(اوصت وزارة التربية الوطنية بتدريسها في مدارس لبنان)

***

تطلب منشورات لجنة التاليف المدرسي من :
دار المكشوف ، دار بيروت ، دار العلم للملايين ، مكتبة لبنان ومن سائر المكتبات